مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2570 0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد: 07 العدد: 02 جوان (2023) ص 581-591

تجليّات المنهج الشكلاني عند قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر

The Manifestations of the Formal Approach of Qudama bin Jaafar in his Book Criticism of Poetry

د ، ساكو محمد*

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة (الجزائر)

mohamed.sakou@ensb.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال: 2023/04/21

تاريخ القبول: 2023/05/16

الكلمات المفتاحية:

- ✓ النقد القديم
- ✓ المناهج المعاصرة
- ✓ الشكلانية

الملخص:

لعلّ من أشهر الشخصيات الأدبية والنقدية التي عُرفت بوزنها العلمي ومكانتها المتميزة بين نقاد ومنظري القرن الرابع الهجري، الناقد الكبير قدامة بن جعفر ت337هـ، وذلك بما قدّمه من آراء جريئة ومفاهيم ومصطلحات جديدة، ومنهج علمي غير مألوف، جعله ينآى عمّا كان معروفا متداولا، الأمر الذي جعل النقاد بعده يصنّفون جهود قدامة في خانة التميّز والتّفرّد، خصوصا في الجوانب التنظيرية والشكلية البحتة . وإذ نقدم هذا المقال فإننا سنقف من خلاله على جملة من الآراء النقدية، والمفاهيم المصطلحية الجديدة التي نحسب أنها جديرة بالبحث والبيان والمناقشة، خاصة ما تعلق منها بمنهج قدامة في قراءته للنص الأدبي، وما الذي أضافه للعملية النقدية ؟

Article info

Received 21/04/ 2023

Accepted 16/05/2023

Keywords:

- ✓ *ancient criticism*
- ✓ contemporary approaches
- ✓ formalism

Abstract :

Perhaps one of the most famous scientific and literary figures known for its scientific achievement and distinguished position among the critics and theorists of that era,the great critic Qudama bin Jaafar d. Which made critics after him classify Qudama's efforts in the category of distinction and uniqueness, especially in the theoretical and purely formal aspects.

In this article, we will address a number of critical opinions, new concepts and terms that we consider worthy of research, clarification and discussion. Especially all that is related to Qudamah approach and its valuable additions to the critical process.

* المؤلف المرسل

. مقدمة:

شهد القرن الرابع الهجري نهضة علمية ومعرفية في مختلف العلوم والمعارف، خاصة بعد امتزاج الثقافة العربية بالثقافات الأجنبية المختلفة – يونانية، هندية، فارسية - ، وهو الأمر الذي جعل العلماء بعد تمكّنهم من هذه المعارف يتّجهون إلى التأليف والتصنيف في مختلف العلوم، وكان من أكثر تلك العلوم كتابة واهتماما وضبطا وتأصيلا للمفاهيم والمصطلحات، علوم العربية في شقّيها البلاغي والنقدي .

وقد ساعد ذلك الفضاء الرّحب المتّسم بالنقاش العلمي المستنير على ظهور شخصيات علمية متعددة المشارب موسوعية المعارف، قدمت للقارئ العربي خلاصة أفكارها، وباكورة منجزاتها الثقافية والفكرة والأدبية، وكانت أبرز شخصية نقدية لافتة، مارست نوعا من الانزياح وخرقت أفق التفكير الأدبي والنقدي، من خلال الجمع بين الذوق العربي والمنطق الأرسطي العقلاني، شخصية – قدامة بن جعفر-، هذا الرجل الذي كسر قواعد الكتابة النقدية، وأعطى العنان لفكره المتسلح بالثقافة العربية اليونانية ليمارس هوايته في فضاء الأدب والنقد والفلسفة، ويعمل على صهر كل ذلك فيخرج لنا بآراء جريئة لم يعهدها الناس، فكان له منهجه وطريقته في القراءة والتصوّر، ونحن إذ نقف على فكر هذا الرجل في هذه السانحة، فإننا سنحاول أن نقف على تصورته وآرائه حول بعض القضايا النقدية التي أثارها وناقشها، وذلك في ضوء مناهج التحليل المعاصرة .

إن هذا التمهيد الأولي يسوقنا إلى طرح جملة من التساؤلات هي من صميم إشكالية هذا البحث، والتي تدور في أكثريتها حول مدى اهتمام النقاد العرب المعاصرين بالتراث العربي القديم ؟ وما هي الإستباقات المعرفية التي يكون النقاد والبلاغيون القدامى قد أشاروا إليها وتنبّهوا لها ؟ وما حدود وتجليات تلك الإستباقات المعرفية؟ ثم ألا يشكّل قدامة بن جعفر أحد أبرز النماذج النقدية التي أسهمت إلى حدّ كبير في تأصيل المفاهيم ورصد قضايا ومصطلحات نقدية تدخل اليوم ضمن ما تهتم به وتعالجه الأبحاث اللغوية واللسانية المعاصرة ؟ هذه الأسئلة وأخرى ستكون محلّ محاورة ونقاش للوقوف على اجتهادات قدامة بن جعفر وتفرّداته النقدية، والمنهج الذي سلكه في التأسيس لنظريته النقدية .

2- النظريات النقدية المعاصرة والنقد العربي القديم:

يمثل النقد العربي القديم الأساس الذي قامت عليه الدّراسات النقدية والأدبية الحديثة والمعاصرة، وعند البحث والتحري نجد أنّ أكثر النظريات النقدية الحديثة والمعاصرة، لها أصول وتقاطعات مع الثقافة والتراث النقدي العربي القديم، وإنما الاختلاف فقط في المصطلحات والمفاهيم والمفردات، وهو ما يتجلى بوضوح في جملة الأفكار والقراءات النقدية السابقة لعصرها من التي قدّمها على الخصوص بعض أرباب الأدب والنقد العرب من أمثال: الجاحظ، وابن سلام، وابن قتيبة، وقدامة بن جعفر، وابن طباطبا العلوي، وابن رشد، وحازما القرطاجنّي، وابن خلدون، وهو عين ما تنبّه له الدكتور بشير دردار، وأشار إليه وهو يتعرّض لتوصيف هذه الظاهرة في بحث نفيس له، مُدرجا إياها تحت مسمى: إشكالية إساءة قراءة التراث، أو ليَّ أعناق النصوص[1] .

وإنّ ما فعله النقاد الغربيون المعاصرون لا يعدوا أنهم قرأوا التراث المعرفي للنقاد والأدباء العرب القدامى قراءة واعية، إلى أن توصّلوا لنظرياتهم الحديثة، ولولا تلك الأرضيات التي مهّد لها أولئك الفحول من النقاد العرب القدامى، لما استطاع النقاد المعاصرون صياغة نظرياتهم الحديثة بتلك البساطة والسهولة الواضحة والطموح العلمي القوي .

ولعل العمل الإستباقي الذي قدّمه قدامة بن جعفر في كتابه – نقد الشعر- يمثّل حالة من كسر أُفق التوقّع، وذلك لما أورد فيه من جديد لا يشبه كُتب النقد المعاصرة له أو المؤلفة في القرن الرابع الهجري، وذلك ما سيتضح لنا في ثنايا هذا البحث، بعد عرضنا ومناقشتنا لعديد القضايا التي طرحها وناقشها كثير من الدارسين الذين اهتموا بالتراث النقدي القديم، خاصة ما اتّصل منها بجهود قدامة بن جعفر النقدية .

3- هل سبق قدامة بن جعفرزمانه بتنظيراته النقدية؟

إذا كان الاهتمام في هذا البحث العلمي يرتكز بالأساس على ما قدّمه قُدامة من جُهد نقدي متميز، فإنّه يمكن لنا القول من غير تردّد أن كتابه - نقد الشعر- إنما وضعه صاحبه بغرض خدمة الفن النقدي بامتياز، كما عبر عن ذلك هو صراحة بقوله: " ولم أجد أحدا وضع في تقد الشعر وتخليص جيّده من رديئه كتابا، فكانت الكتابة عندي في هذا القسم أولى بالشعر من سائر الأقسام المعدودة " [2] .

نعم لقد ذكر قدامة في ثنايا كتابه بأن العلم بالشعر أقسام أربعة، اهتمّ النقاد بالثلاثة الأولى منه، وتجاهلوا القسم الرابع والذي هو علم جيّد الشعر من رديئه، وهذا جوهر ما اهتمّت به الشكلانية الحديثة [3] في تنظيراتها ومعالجتها للنصوص الأدبية من طرف رواد هذا المنهج من أمثال:(شتراوس، وبروب، وتودوروف)، الذين انصبّ جهدهم على الدراسة الظاهراتية لشكل النص وطريقته البنائية، والواقع يشهد بأن قدامة بن جعفر كان قد سبق هؤلاء بمئات السنين، ومثال ذلك قوله تعليقا على بعض أشعار امئ القيس: " إنّ هذا المعنى وإن كان فاحشا، إلا أن فحاشة المعنى في نفسه ليست مما يزيل جودة الشعر فيه "[4] ، حيث نرى قدامة يركّز بشكل أساس على ما يحمله النص الأدبي من قيمة فنية بغض النظر عن محمولاته الفكرية والإيديولوجية، وهذا ما عبّر عنه أحمد مطلوب في نظرته إلى منهج قدامة وطريقته في العمل النقدي: " إن قدامة يشترط على الشاعر إذا شرع في أيّ معنى من المعاني الحميدة أو الذميمة أن يتوخى البلوغ والتجويد في ذلك، من دون تحرّج بين المعنى الفاحش أو المعنى النبيل "[5] .

هكذا كانت نظرة قدامة للفن وما تولدّه النصوص الأدبية، نظرةٌ أعرب عنها بكل وضوح، وصرّح بها بكل شجاعة وعنفوان، في وقت كان الحديث عن مثل هذه القضايا ومعالجتها يثير حتى العلماء ورجالات البيان فضلا عن العامة والدهماء من الناس، لقد نادى قدامة بن جعفر بضرورة الفصل بين الشعر والأخلاق، والحقّ أنّ ما ذهب إليه قدامة في ذلك الزمن الغابر أصبح اليوم نظريّة في النقد، قوامها تجريد النقد الأدبي والعمل الفني في عمومه عن المقاييس والنظرة الأخلاقية، وهو عين ما تشير إليه وتؤيّده الكثير من الدراسات الأدبية والنقدية المعاصرة، ولعل المقولة الرائجة من أن الفن ينبغي أن يكون للفن، لهيّ أكبر دليل على هذا المنحى .

ولا يفوتني أن أسجل بإكبار ذلك الإعجاب الذي أبداه المفكر والناقد الكبير جابر عصفور بذلك التحليل العميق الذي عرضه قدامة بن جعفر، والإثارة التي عالج بها مسألة الفضائل الأربعة الموجبة للمدح ونظرته الصائبة عل حدّ قوله للنزعة الأخلاقية، حتى أنه ليؤكد على تقدّم قدامة على معاصريه وسابقيه في قضية الشعر والأخلاق[6] ، بل ويزداد إعجاب جابر عصفور بقدامة، ويصمد في الدفاع عن منهجه ومسلكه النقدي هذا متبنيا مذهبه ذاك بقوله: " إنّ قدامة استطاع أن يتجنّب مأزق ارتهان الشعر للأخلاق ، أو الاحتكام إلى المعايير الأخلاقية في تقويم جمالية الشعر "[7] .

إنّ هذه الالتفاتة من ناقد كبير كجابر عصفور إلى ناقد تراثي قديم في صورة قدامة بن جعفر جعلت الدكتور يشير دردار يثمّن فيه ذلك الاعتراف بجهود نقادنا القدامى، بل ويعتبر ذلك من المناقب التي يجب أن تذكر فتشكر حين يقول: " والحق أنّ ناقدا مثل جابر عصفور سعى بكل جهده من أجل إبراز المستوى الرفيع للنهج النقدي الذي سلكه قدامة بن جعفر، وتفنيد مزاعم من طعنوا فيه من بعض المعاصرين، خاصة عندما نراه يندفع إلى إلباس أطرحته بالوجاهة والقوة فيما تعلّق منها، بالتوفيق بين المعيار الفني والمعيار الأخلاقي فيما وضعه من آليات لقياس جودة الشعر ورداءته "[8] .

ولعلّ تخلُّص قدامة بن جعفر من النزعة الأخلاقية في منهجه النقدي، وتناوله للنصوص وانتقاده لها مما يعطي الانطباع على نُضجه المبكّر من خلال دعوته إلى فصل الأدب والشعر عن الأخلاق وسطوة الدين، فكان بذلك من أوائل المدافعين عن نظرية جمالية الشعر وأدبية النص بعيدا عن محمولاته ومضمونه، وكأنه يقف في صفّ الشاعر وينتصر لحرية الإبداع،

فقدامة بن جعفر قد جنّب الشعر سلطان الدين والأخلاق عندما أناح للشاعر القول فيما يروم من معان طيبة أو خبيثة فاضلة أو مرذولة إذ قال:ـ"وممّا يجب توطيدهُ وتقديمه أن المعاني معروضة للشاعر، وله أن يتكلّم منها فيما أحبّ وآثر، من غير أن يحضر عليه معنى يروم الكلام فيه " [9] .

ومن الشواهد الشعرية التي يمكن الاستشهاد بها في هذا المقام قصيدة امرئ القيس التي هاجمها بعض حُماة الأدب من النقاد الأخلاقيين إن صح التعبير[10]، حيث نجده يضرب لذلك مثلا بقول امرئ القيس: [11]

فمثلك حُبلى قد طرقت ومرضع ///// فألهيتها عن ذي تمائم محول

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له ///// بشق وتحتي شقّها لم يحوّل

فنجد كثيرا من النقاد والدارسين يؤاخذون على الشاعر منحاه هذا ويتّهمونه بالفسق والفجور، ويقولون عنه أنّه من مروجي الرذيلة والمجون والانحراف الأخلاقي، حتى أنّ فيهم من بالغ وذهب إلى القول بأن مثل هذه القصيدة لا تصلح للنشر، لأنه لا قيمة اجتماعية وإنسانية فيها، وهي لا تعدوا أن تكون مجرّد كلمات ماجنة مليئة بالمغامرات الجنسية الفاحشة لشاعر مُتفلّت من القيم الاجتماعية والأخلاقية .

فيما رأى قدامة بن جعفر رأيا آخر، ودافع عن النص بطريقة نقدية ملفتة ومتميّزة حينما قال: " إني رأيت من يعيب على امرئ القيس قوله هذا، غير أني أقول: إن هذا المعنى وإن فاحشا، إلا أن فحاشة المعنى في نفسه ليست مما يزيل جودة الشعر فيه، كما لا يعيب جودة النجار في الخشب مثلا رداءته في ذاته " [12]، فهو يعتبر أن الشعر إنما ينظر فيه إلى الصياغة اللغوية وعنصر التصوير، وليس إلى الفكرة أو المعنى في حدّ ذاته ،وهذا مما يبين أن قدامة قد سبق عصره بالنظر للآراء النقدية السابقة لزمانها التي طبعت منهجه النقدي، وأيا ما كانت الفكرة أو المعنى التي يحملها النص، فإن العبرة بحسب قواعد النقد الحديث إنما هي بجمالية الأسلوب وجودة العبارة والتصوير، وهو بهكذا آراء يعلن صراحة عن تفرّده وتميّز منهجه النقدي .

4- قدامة بن جعفرومذهب الحداثيين بأن الفن للفن:

من بين الإشكالات الملحّة التي طرحها النقد الحديث قضية الجمالية الفنية والإلتزام، وعلاقة النقد الأدبي بهما، وذلك أنّه ومنذ – هوراس – ومعادلته الشهيرة القائمة على المتعة من جهة والفائدة من جهة أخرى، من خلال مقولته – بأن الشعر ممُتع ومُفيد [13]، لازال النقاد ينتصرون للأدب، ويدعّمون مقولة أن وظيفة الفن والإبداع هي البحث عن الجمالية والفنية بشكل خاص بعيدا عن الأغراض الأخلاقية والاجتماعية والتعليمية، " لأن العُنصر الأساس لكل نصّ أدبي هو خلق الدّهشه والإبهار وتصعيد الإحساس والانفعال، من خلال كسر قيود الرتابة وصدم القارئ وإذهاله وإخراجه عن المألوف " [14]، وكما يقول أحد الدارسين أيضا " وهنا تأتي إشكالية النزعة الأخلاقية التي يرى فيها كثير من النقاد المعاصرين أنها تحكّمت في طُروحات النقاد القدماء ومنعتها من أن تقدّم قراءة أكثر استيفاء وإنصافا لأصناف الإبداع الشعري العربي القديم .." [15].

وفي الحقيقة فإن مواجهة هذا الاتجاه الأخلاقي في قراءة النصوص قد تعرض له كثير من النقاد والأدباء العرب القدامى من غير قدامة، نذكر طرفاً من آراء بعضهم فيما يلي:

لقد تنبّه أبو بكر الصّولي إلى هذه القضية منذ زمن بعيد في دفاعه عن أبي تمام فقال: " وقد ادّعى قوم الكفر بل حقّقوه وجعلوا ذلك سببا للطعن في شعره وتقبيح حسنه، وما ظننت أنّ كفرا يُنقص من شعره ولا إيمانا يزيد فيه " [16]، كما نتلمّس كلاما جميلا وتخريجا جيدا لهذه المسألة للقاضي الجرجاني وهو يؤسس لفكرة أن الدين ينبغي أن يبقى بمعزل عن الشعر فيقول: " لو كانت الديانة عار على الشعر، وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخير الشاعر، لوجب أن يُمحى إسم أبي نواس وغيره من الدواوين ..." [17]، كما أننا نعثر في ثنايا مصادر تراثنا العربي على كلام ماتعٍ لابن جني وهو يدافع عن صديقه الشاعر الكبير أبا الطيب المتنبي عندما يقول: " فالاعتقادات الدينية لاتقدح في جودة الشعر من حيث هو شعر" ، ومن النقاد العرب المحدثين

الذين جسّدوا عمليا فكرة الفن للفن، الناقد المتحرر محمد النويهي بقوله: " فالفن رَضينا أم لم نرض، لا يحكم عليه في مجال النقد الأدبي بمقياس الأخلاق، إنما المقياس الصحيح والوحيد هو المقياس الفني المحض "[18].

وبذلك فإنّ أصحاب نظرية الفن للفن، والأدب للمتعة والفائدة نقول لهم؛ بأن أعلام النقد العربي القديم قد سَبَقوا إلى تبنّي محتوى هذه النظرية، وأبدعوا في تخريجها والدفاع عن الإبداع والمبدعين شعراء وكتاب، وأن مثل هذه الأقوال والتصريحات لنقاد من طينة الكبار لها دلالتها ومرجعيتها، وأنه بإمكان النقاد في العصر الحديث أن يجعلوا من كل ذلك مرجعا لهم، ومادة خصبة لتدعيم توجّهاتهم النقدية، ولنا أن نقول نحن بعد هذه الجولة السريعة مع فطاحلة النقد القديم أن التراث النقدي العربي القديم لم يكن ليعطّل الإبداع أبدا، ولم يساير نظرية الالتزام في الأدب، ولم يوليها أية أهمية في العملية الإبداعية، ولم يجعل منه مُتكئا لتكميم الفنان وخنق الإبداع .

5- معالم التجلّي لمنهج قدامة النقدي:

لا يشك أيّ دارس موضوعي في مدى قوة ومتانة الجهود العلمية والنقدية التي بذلها قدامة في ميدان الأدب والنقد والبلاغة، كيف لا وقد عُرف عنه بأنه من أوسع أهل زمانه علما وثقافة، وأغزرهم مادة، فبرع في اللغة والأدب والفقه وعلم الكلام والفلسفة والحساب، يمدّه في كل ذلك ذكاء قوي وهمة عالية، وشغف بالاطلاع والتحصيل، وكان كتابه – نقد الشعر- نقطة تحوّل كبيرة في الدراسات النقدية العربية، باعتباره أوّل بحث علمي منظم في النقد، لما فيه من معالم واضحة وأصول ثابتة للنقد .كما يقرُّ بذلك كثير من الدارسين فيما سنراه لاحقا .

والقارئ للتراث النقدي والبلاغي العربي القديم قراءة فاحصة يلمح بلا شك معالم بارزة في منهج قدامة بن جعفر النقدي من التي يمكن إدراجها ضمن الإستباقات المعرفية والمفاهيم المصطلحية السابقة لزمانها، اعتبارا من أن المنهج النقدي الذي سلكه الرجل يتقاطع في كثير من جوانبه مع ما توصّلت إليه الأبحاث اللغوية واللسانية الحديثة، خاصة مُنظري البنيوية والشكلانية من الذين اهتموا بأبنية النصوص والمعالجة الشكلية للنص كوحدة بنائية بعيدا عن جميع المؤثرات الأخرى، وقد أثار الدكتور بشير دردار في دراسة له هذه القضية بقوله: " يثير كتاب قدامة بن جعفر - نقد الشعر- على نحو لافت عددا من القضايا لا تثيرها مؤلفات نقدية قديمة سابقة عليه أو معاصرة له أو لاحقة به، هنا تكمن قيمته وفرادته التي استدعت تسليط القراءة عليه عند مؤرّخي النقد الأدبي القديم، والمهتمين بدراسة قضاياه من المعاصرين الذين توزّعوا إلى تيارات واتجاهات مختلفة وأحيانا متناقضة .."[19]، وهو بلا شك طرح واستباق معرفي يحسب لقدامة في ظلّ طغيان المفاهيم والمناهج النقدية المعاصرة، والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا الصّدد ؛ كيف استطاع قدامة بن جعفر أن يشكّل بمنهجه النقدي طفرة علمية واستباقا معرفيا ؟ خصوصا في طريقته الشكلية التي خالف بها نقاد عصره وهو يقدّم كتابه إلى الساحة النقدية العربية ؟

6- هل شكّل قدامة بن جعفرالاستثناء:

من الواضح في نقد القرن الرابع الهجري وبسبب تأثّره بتعاليم الديانة الإسلامية، كان لموقف النقّاد من الدين والأخلاق أهمية في قراءة الشعر والحكم عليه، وتظهر أهمية ذلك في أنّ الناقد لا يطبق رأيه فحسب، وإنما يتّبع عُرفا اجتماعيا وعقديّا سائدا يفرض نمطا معيّنا في الحكم على الشعر من خارج المعيار الأدبي والنقدي، ولنا أن نتصوّر مثل هذه الجراءة من ناقد يعيش في وسط مكبّل بقيود الدين والأعراف والتقاليد، والتي لا يمكن لاجتهاد العلماء كيفما كان مركزهم أن تخرج عن هذا الإطار الديني المتدثّر بالغطاء السياسي، كما يقول الدكتور جابر عصفور: " إنّ حركة الفكر والثقافة كانت رهينة علاقة السياسي المتدثّر بدثار الدين مع المؤسّسة الدينية والتيار الذي يهيمن عليها، وما مثال المعتزلة والأشاعرة إلا تأكيد لهذه المقولة "[20].

وكما يقول صاحب كتاب – النقد العربي القديم قضايا وأعلام- " فهذه القضيّة خطيرة جدا في النقد، وذلك لأن المعتقد الديني يقوم بدور رئيسي في تقبّل شعر الشاعر أو رفضه، وبخاصة إذا علمنا أن هذه الفترة الزمنية قريبة نسبيّا من بدأ الدعوة الإسلامية – القرون الهجرية الثلاثة الأولى -، بالإضافة إلى تأثيرات الميراث المتّصل بموقف الدين من شعر الشعراء "[21]. ، وبذلك فإنّ كتاب قدامة – نقد الشعر- يمثّل أحد أهمّ الكتب النقدية التي أسست للنظرية النقدية التجريدية القائمة على أساس من الموضوعية بعيدا عن المواقف الذوقية الانفعالية، وقد عرض فيه منطلقاته الفكرية من خلال تقديم جملة من المفاهيم الجديدة بالمقارنة مع عصره، وبناء عليها راح يؤلّف كتابه ويعرض مصنّفه النقدي، ونجده قد نبّه في مفتتح كتابه إلى أن جهده النقدي يتّسم بالجديّة وذلك في محاولة م نه لتخليص القوانين الشعرية مما ليس من جنسها، وبالتالي فهو يسعى إلى إثبات منهج نقدي بذاته يرتكز بشكل أساسي على استثارة مكامن الجمال والفن في العمل الأدبي، اعتبارا من أنّ جوهر العملية النقدية بحسبه إنما تتحدّد في التّمييز بين ماهو جيّد وما هو رديء .

7- **أهم التفرّدات التي ميّزت كتاب قدامة – نقد الشعر-:**

إذا ما أردنا أن نعرف كيف قرأ قدامة النّص الأدبي، وما الذي أضافه للعملية النقدية ، كان علينا أن نتلمّس ذلك بآخر الإصدارات والكتابات النقدية التي قرأت فكر قدامة وتراثه النقدي من مثل كتاب : - التلقي في النقد العربي في القرن الرابع الهجري- لحسن فطوم، والذي كتب يقول: " لقد بلغ قدامة ذروة التفكير الموضوعي في نقد القرن الرابع الهجري، فهو بتأسيسه لمنهجه العقلي في النقد أضاف رافدا جديدا إلى الوعي النقدي، لأنّ اتّسامه بالنقد العلمي الصارم، وابتعاده عن الأحكام الشمولية ذات الطابع الذوقي الفردي، إنما يشكّل علامة فارقة في الوعي النقدي حينذاك " [22].

نعم لقد كان قدامة عظيم الإيمان بالقواعد التي وضعها، وأنها يمكن أن تكون الأساس الذي يقوم عليه نقد الشعر، لذلك اتّجه إلى النقد المنهجي لما أصّله، وربما هذا ما جعل ناقدا في قامة أمجد الطرابلسي يكتب عنه قائلا: " إنّه- أي قدامة- يوقفنا أول مرة في تاريخ الدراسات الشعرية وربما لآخر مرّة على أنه بصدد مشروع نقدي منظّم وتام، تتسلسل فصوله تسلسلا منطقيا ولا يتحدّث صاحبه إلا على القضايا الجوهرية "[23].

وإذا ما حاولنا أن نبرز أهم التفرّدات التي ميّزت مشروع قدامة النقدي عن غيره من النقاد فإنه يمكن لنا تحديد أهمّ تلك التمظهرات في النقاط التالية [24]:

- تميّز عمل قدامة النقدي بتخلُّصه من الأحكام الأخلاقية القيْمية بما فيها من الصدق والكذب الواقعيين، واهتم فقط بالصدق الفني لأنه هو الذي يدخل في صلب صناعة الشعر، حيث يصرّح قدامة بوضوح بقوله: " فالشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقا، بل يراد منه إذا أخذ في معنى من المعاني كائنا ما كان أن يجيده في وقته الحاضر "[25]، وبذلك فإن قدامة لاتهمّه محمولات النّص بقدر ماتهمّه الجدّة التي يحملها، والصيغة الفنيّة الجيدة، وإذا فإن الأهمية الكبرى لديه هي الصياغة والوصول بالنص إلى الجودة، بدليل توجيهاته المستمرة للشعراء وهو يتوخّى منهم تحرّي الجودة في أعمالهم الفنية فيقول: " وعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى كان من الرفعة أو الضّعة، والرفث أو النزاهة وغير ذلك من المعاني الحميدة أو الذميمة أن يتوخّى البلوغ من التجويد في ذلك الغاية المطلوبة، وهذا لعمري استباق نقدي منه في عصره، بعد أن كان مثل ذلك لا يستساغ ولا يقبل عند من سبقه، ولا حتى من اللاحقين ممّن يعتبرون الأخلاق فوق كلّ شيء "[26].

- ومن التفردات والتميُّزات التي طبعت منهج قدامة النقدي أنه أباح للشاعر التناقض في قصيدتين أو كلمتين من الشعر إذا كان قد أجاد في كلتا الحالتين ، ومعنى ذلك أن بإمكان الشاعر أن يمدح ويذمّ في الآن نفسه ولنفس الشخص إذا اختلفت المقامات والأحوال، بشرط أن يبلغ الجودة في كلتا الحالتين، بل غنه جعل ذلك من دواعي الشاعرية ودلالة على قوة الشاعر

واقتداره، لأن الأهم في نظر قدامة هو الإجادة الفنية في وقت المدح، ثم الإجادة عند الذّم، من دون التمسّك بالمبادئ والقيم وعدم الخروج عنها .

– كما نتلمّس لقدامة رؤية خاصة في الاختيار الشعري، وهو أن يفضل ويختار منه ما جاد وبلغ الغاية في الحسن، وأثّر في نفسية المتلقي، وليس ما طابق معتقد الشاعر أو صدقه وقيّمه الدينية، بهذا التميّز الذي سلكه قدامة وقرأ من خلاله النص الشعري، أمكننا القول بأن قدامة وهو يؤسّس لمشروعه النقدي، كانت أهدافه وغاياته واضحة، ألا وهي تحرير الشعر من الانطباعية والذوقية الفردانية الخاصة، والأحكام العفوية، كما يخلص إلى ذالك الأديب والناقد أحمد طه إبراهيم[27] .

8- معيار الصدق الفني في الشعر عند قدامة:

يمكن اعتبار قدامة بن جعفر من النقاد القلائل الذين عالجوا مسألة صناعة الشعر والصدق الفني، ومعني هذا القضية يتجلى من خلال منظور قدامة أنّه من حق الشاعر ألاّ يتقيّد أثناء نظمه للقصيدة الشعرية إلا بالصدق الفني، ولا يهمّ من وراء ذلك إن هو جمع بين المتناقضات في شعره، فلو ناقض شاعر نفسه فقال في قصيدة كلاما ، ثم قال خلافه في قصيدة أخرى لكان أمرا مقبولا في الشعر، بل إن ذلك دليل على قوة الشاعر واقتداره يقول قدامة: " وممّا يجب تقديمه أيضا أن مناقضة الشاعر نفسه في قصيدتين أو كلمتين، بأن يصف شيئا وصفا حسنا، ثم يذمّه بعد ذلك ذما حسنا، غير منكر عليه ولا معيبٍ من فعله، إذا أحسن المدح والذم معا، بل ذلك عندي دليل على قوة الشاعر في صناعته واقتداره عليها[28] "، وإنما الذي يهمه بالدرجة الأولى هو بلوغ درجة التجويد في الحالتين – في حال الذم وفي حال المدح - ، لذلك فهو لا يرى من عيب يلحق بامرئ القيس عندما ناقض نفسه إذ قال في موضع:

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة ///// كفاني ولم اطلب قليل من المال

ولكنما أسعى لمجد مُؤثّل ///// وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

ثم قال في موضع آخر: فتملأ بيتنا أقطا وسمنا ///// وحسبك من غنى شبع وريٍّ

فامرؤ القيس يذهب في أحد أقواله إلى التأكيد على أنّ القليل من العيش يكفيه، ويقول في موضع آخر أن القليل لا يكفيه[29] .

ومقصود قدامة من ذلك هو أن تناول الشاعر لبعض المتناقضات لا يضر بشاعريته طالما حقق الجودة الفنية في نظمه الشعري، وهو يبرّر هذا الموقف بقوله: " أن الشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقا، بل إنما يراد منه إذا أخذ في معنى من المعاني كائنا ما كان أن يجيده في وقته الحاضر، لا أن ينسخ ما قاله في وقت آخر[30] " ، لأن مسألة الصدق والكذب عند قدامة أمر لا علاقة له بالشعر.

وعلى ذلك يمكن القول بأن قدامة بن جعفر يمكن اعتباره أنه قد أرسى دعائم نظرية نقدية قائمة بذاتها تقوم على عنصر القيمة الفنية والأثر الجمالي للعمل الأدبي، كما يكون بذلك أيضا قد تجاوز تفكير سابقيه، وكان سبّاقا لفكرة الفن للفن التي تبلورت في العصر الحديث .

9- قدامة بن جعفر والنظرية الشكلانية للنصوص:

على الرغم من بُعد السنين وسطوة الزمن وسلطة الدين وقوّة الأعراف المجتمعية التي كانت تحكم المجتمع العربي في تلك الحقب الزمانية الأولى من التاريخ الإسلامي، إلا أننا نجد ذلك التحكّم العلمي الصارم الذي جسّده ناقد فذّ عرف تقلّبات المجتمع المسلم الذي عايش أوضاعه وصقلته كثيرا أعرافه وتقاليده، ومع ذلك لا يتوانى في تحكيم المنطق السليم والذوق السديد فيما يخصّ الأعمال الأدبية والفنية والشعرية، وقد لانبالغ إذا قلنا بأن قدامة يعتبر من أوائل النقاد العرب الذين دعوا إلى قراءة النصوص قراء مجرّدة بعيدة عن التحكيم الأخلاقي والتقييم الديني أيّا كان مبدعها، وهو بذلك يجسّد ابتداء ما تنادي

به النظريات النقدية المعاصرة بضرورة ترك الفن للفن، من دون إدخال أية مؤثّرت أو عوامل أخري، فكان بذلك قدامة بن جعفر من السباقين إلى تبنّي مثل هكذا مواقف نقدية علمية موضوعية مجرّدة .

إن القراءة التي يقدّمها قدامة بن جعفر في هذا المجال تشكّل الرؤية الأكثر وضوحا والأبرز انتشارا، خاصة بعد تبنيها من طرف النقاد المعاصرين كنظرية تجديدية، وإذا كان قدامة سبق بفطنته وذكائه وجرأته في القول بأنّ أخلاق الشاعر ومعتقده الديني ليستا مما يدخل في مجال الحكم على الشعر والشاعر، " اعتبارا من أن النقد إنما يهتم بحدود النظم الشعري، ونعوته، وائتلافه وسبل التجويد فيه، نافيا في الوقت نفسه العلاقة التصادمية بين الشعر والدين، رافضا وفقا لهذا المبدأ أن تكون الأخلاق، أو عقيدة الشاعر، أو عدم مناقضته لنفسه في شعره، مقياسا للجودة، وبالتالي فإن تقديم الشاعر وتأهيله لا يكون إلا على أساس الجودة الفنية، وهي نظرة علمية رصينة من قدامة تحسب له في تأكيده على إلزامية توجيه الحكم إلى الشعر والعمل الفني وليس إلى الشاعر "[31] .

وقد سار على هذا النهج من بعده القاضي الجرجاني ت366هـ، والذي كان قد اطلع على آراء قدامة بن جعفر في هذا الخصوص، فدفعه منهجه العادل في كتابه – الوساطة بين المتنبي وخصومه – إلى القول بأن الحكم على الشاعر من خلال الإخلال ببعض النظم الاجتماعية أو المعتقدات الدينية، مذهب مرفوض لا يستسيغه العقل والمنطق السليم، وأن الأولى بالدراسة والتفحص والرفض والقبول هو النص، ولا شيء غير النص في التقويم والتقييم .

وبالرّجوع إلى قدامة بن جعفر والنظر في المنهج النقدي الذي رسمه لنفسه وسار عليه في عملية التقويم النقدي نرى ونتلمس بشكل واضح مدى اقتراب منهجه ذلك من منهج الجماليين الشكلانيين، باعتبار أن أكثر ما اهتموا به هو الجانب الجمالي في النص، والبحث عن ميزان الجودة والاهتمام بالمقاييس التي تجعل النص نصّا أدبيا جيدّا، وإن أكثر ما اعتدّوا به في هذا السياق هو النص ذاته، بوصفه عملا فنيا يحمل في طياته مقوّمات الجودة أو الرداءة بعيدا عن ذوق المتلقي، ثم إننا لا نجد ناقدا مثل قدامة الذي قصر حديثه كله، واختصّه بالبحث عن الحقيقة الشعرية ذاتها، دون أن يلتفت للشاعر أو المتلقين، إذ ليس يدخل في نقد قدامة أي حديث عن الحالات النفسية بالمعنى الصريح والدقيق، ولا عن الطبع وما أشبه ذلك[32] .

وعلى ذلك فإن ابتعاد قدامة عن الأحكام الفردية والشخصية يجعل منه ناقدا موضوعيّا، وهو ما يعطي الانطباع للقارئ والناظر في الشعر العربي، بضرورة اتباع هذا المنهج في الحكم على الشعر والنظر فيه وتقييمه، " وإن العنوان الأبرز الذي يمكن أن نُدرج قدامة تحته هو مدى تبنيه للمنهج الشكلاني القائم على تشريح النص الأدبي، والبحث عن العلاقات الفارقة فيه، للتمييز بين جيّد الشعر ورديئه، وتتبّع أسباب الحسن والرداءة "[33] ، وبذلك فإن القراءة التي قدّمها قدامة بن جعفر هي قراءة شكلية تتطابق مع رؤية الشكلانيين المحدثين، الذين كان كل همّهم هو البحث عن العلاقات الداخلية في النص بعيدا عن المؤثرات الخارجية، لأنها هي التي تُبدي سمات الجمال في النص، وإن هذا التخريج الذي توصلنا إليه، إنما هو خلاصة لما تعاورته أقوال النقاد في تتبّع طريقة ومنهج قدامة النقدي، ولعل من أفضل ما يمكن الاستشهاد به في هذا الاتجاه ما كتبه أحد الدارسين والنقاد المحدثين بقوله: " إن ما فعله قدامة هو أنه رسم لنا ملامح النص الشعري الجميل وشروطه وقوانينه، والشكل الذي يخرج فيه النّص إلى القارئ هو مدار الحكم الجمالي، ولا أهمية للمعنى إلا من هذا الجانب "[34]، وبالتالي بإمكان الشاعر أن يتكلم فيما يحب ويريد من غير تحجير عليه كما يقول قدامة بن جعفر: " فللشاعر أن يتكلّم فيما أحبّ وآثر، من غير أن يمنع عليه أيّ معنى يروم الكلام فيه "[35] .

10- خاتمة:

بعد هذه الجولة العلمية مع فكر قدامة بن جعفر ونظراته في الشعر، وقراءاته المختلفة عن سابقيه، تبيّن لنا أن هذا الرجل يمتلك فعلا رؤية نقدية، وأن ما قدّمه من آراء إنما ينّم عن مدى تمسُّكه بمنهجه وطريقته النقدية في المعالجة الشعرية، وفي ضوء ذلك يمكن لنا أن تسجيل النتائج والاستنتاجات التالية:

- لقد بلغ قدامة بن جعفر في كتابه – نقد الشعر- ذروة التفكير الموضوعي بين نقاد القرن الرابع الهجري، فهو بتأسيسه لمنهجه العقلي في النقد أضاف رافد جديدا إلى الوعي النقدي الذي كان في طور التمايز والنضج، ولأن اتّسامه بالتحليل المنطقي الصارم، وابتعاده عن الأحكام الشمولية ذات الطابع الفردي، إنما يشكّل علامة فارقة في الوعي النقدي آنذاك .

- استطاع قدامة أن يصل إلى مُبتغاه وهو يحاول أن يضع قواعد ومعايير علمية موضوعية، تكون في متناول الشعراء، للإتكاء عليها في إبداع شعري قوي وسليم .

- لقد مثّل قدامة بن جعفر من خلال كتابه نقد الشعر قيمة مضافة في عصره، اعتبارا لما أضفاه من صبغة موضوعية على العملية النقدية، فكانت اجتهاداته في نقد الشعر دافع قوي في تحويل النقد من الذوقية والانطباعية إلى مجال العلمية المحضة .

- إن قدامة بن جعفر يمثل حالة خاصة أمام نقّاد عصره، إذ استطاع بفضل ثقافته المتنوعة أن يخلق ديناميكية نقدية من خلال محاولاته الدّؤوبة للعمل على اكتشاف مواطن الجمال في النصوص بأدوات نقدية بسيطة أتاحها العصر الذي عاش فيه .

- هناك الكثير من النقاد العرب من يعتبر قدامة رائدا من رواد النقد الشكلاني، حيث يقترن منهجه من منهج الشكلانيين الذين اهتموا بالمقاييس الشكلية التي تجعل النص نصّا أدبيا من خلال البحث عن عناصر الجودة والجمال فيه .

- إن المنهج الذي سلكه قدامة في تأليف كتابه - نقد الشعر- هو منهج عقلي منطقي، أراد به توسيع القاعدة العلمية التي يمكن للشعراء الإبداع في ضوئها، وقد وفّق بن جعفر في طريقته تلك إلى رسم منهج علمي يرتسم الطريق الصحيح نحو التجويد، وكيفية تفادي السقوط في مطبّات النّظم الرديء .

- يعتبر قدامة بن جعفر حلقة مهمة في المجال النقدي، حيث لا تزال نظرتُه ورؤيتُه في تجريد النقد الأدبي من المقاييس الأخلاقية تشغل و تستميل بال المعاصرين، إذ ما فتئ النقاد عصرا بعد عصر متمسّكون برأي قدامة من أن الفن ينبغي أن يكون للفن .

- إذا ما حاولنا تقديم حوصلة عن منهج قدامة في النقد فإننا نلاحظ بأنه انتهج مسلك النقاد المعاصرين من الشكلانيين والبنيويين الروس والسلاف، الذين اهتموا بضبط المعايير والمقاييس التي تجعل من النص نصا أدبيا جميلا، من خلال البحث عن مكامن الجودة والجمال في النص بعيدا عن مُنشئه .

- وفي العموم سيظل قدامة بن جعفر علما بارزا وناقدا متميّزا، لفرادة طريقته ومنهجه النقدي الذي سار عليه في الوقوف على إبداعات الشعراء ، ويكفيه فخرا أنه عمل على توليد طريقة جديدة تُشبه إلى حد بعيد طريقة النقاد الشكلانيين في عصرنا هذا، وهو بعمله هذا يكون قد سبق عصره، ووجّه النقد العربي وجهة جديدة لم يعهدها النقاد والأدباء العرب في زمانهم .

11. هومش الدراسة:

1: **دردار بشير، إساءة قراءة التراث النقدي عند المعاصرين- قدامة بن جعفر نموذجا استدلاليا-** ، ص 107 .

2: قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص 15 .

3: أسس الشكلانيون الروس منهجهم النقدي في قراءة النصوص بالتأكيد على الخاصية الجمالية للأدب، وضرورة وجود تفسير أدبي قائم على تحليل النص من داخله، بهدف تذوّقه، وقد ولدت مدرستهم أثناء الحرب العالمية الأولى، ولكن سرعان ما قطعت الحرب العالمية مسيرتها، ومصطلح الشكلانية إنما أطلقه خصوم هذه المدرسة على أتباعها، وكان من أهداف ومبادئ هذه المدرسة الشكلية؛ هي اعتبار الأدب شكلا فقط وعلامة قائمة بين المواد، والقضية الأساس كما يقول أحد كبار منظريها هي البحث عن الأدبية في النص بوصفها منهجا في دراسة الأدب، للتوسع أكثر ينظر: مراد حسن فطوم، التلقي في النقد الأدبي في القرن الرابع الهجري، ص24

4: قدامة بن جعفر، مصدر سابق ص 5/4 .

5: أحمد مطلوب، اتجاهات النقد الأدبي في القرن الرابع الهجري ، ص 68 .

6: جابر عصفور، مفهوم الشعر- دراسة التراث النقدي – ، ص 125 .

7 : جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، ص 35 .

8 : دردار بشير، مرجع سابق، ص 115 .

9 : قدامة بن جعفر، مصدر سابق، ص 65 .

10: حيث أن ثمة من النقاد المعاصرين من يسمي النقاد القدامى الداعمين للأخلاق بحماة الأدب .

11 : بدوي طبانة ، قدامة بن جعفر والنقد الأدبي ، ص 224 .

12 : قدامة بن جعفر، مصدر سابق ص 67 .

13: نشأ هذا الفن الحداثي في أوروبا في القرن التاسع عشر الميلادي، ويطلق عليهم أصحاب الاتجاه الجمالي، ويذهب كثير من الباحثين العرب إلى القول بأن لهذا المذهب جذور في التراث العربي القديم من خلال الوقوف على بعض النصوص للنقاد القدامى، من التي تشير إلى فصل الشعر عن الأخلاق عند تقويمه وتقييمه، بناء على مبدأ أن الشعر للشعر أو الفن للفن .

14: إنّ عبارة صدم القارئ وإذهاله، يراد بها خرق أفق التوقّع لدى القارئ أو المتلقي، وذلك نظرا لما يحمله النص من غموض وإبهام، يجعله يقدّم قراءات لا متناهية للنص .

15 : دردار بشير ، مرجع سابق، ص 108 .

16 : بدوي طبانة ، قدامة بن جعفر والنقد الأدبي ، ص 244 .

17: الجرجاني، القاضي عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص63 .

18 : النويهي محمد، ثقافة الناقد الأدبي، ص 128 .

19 : ينظر ما كتبه الدكتور دردار بشير، المرجع السابق ص107 .

20 : جابر عصفور ، مفهوم الشعر، مرجع سابق ص 125 .

21 : دهمان أحمد علي، النقد العربي القديم قضايا وأعلام، ص43 .

22 : فطوم مراد حسن، التلقي في النقد العربي في القرن الرابع الهجري، ص66

23 : ينظر: جعنيد عبد الرزاق، المصطلح النقدي قضايا وإشكالات، ص38 .

24 : عوض أحمد حسن العلقمي، صناعة الشعر عند قدامة بن جعفر وأبي هلال العسكري، ص97 .

25 : قدامة بن جعفر، مصدر سابق ص17 .

26 : فطوم مراد حسن، مرجع سابق ص19 .

27 : طه احمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي حتى القرن الرابع الهجري، ص 135 .

28 : ينظر : قدامة بن جعفر ، مصدر سابق ص 66 .

29 : المصدر نفسه ص 67 .

30 : نفسه ، ص 68 .

31 : قدامة بن جعفر ونقد الشعر، ص 73 .

32 : ينظر: إحسان عباس، تاريخ انقد الأدبي – نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، ص 208 .

33 : فطوم مراد حسن، مرجع سابق ص63 .

34 :المرجع نفسه ، ص64 .

35 :عبد المنعم خفاجي، قدامة بن جعفر ونقد الشعر، مرجع سابق، ص66 .

قائمة المراجع:

- إحسان عباس،(1986)، تاريخ انقد الأدبي – نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، دار الشروق للنشر والتوزيع عمان الأردن، ط1
- أحمد مطلوب(1973م)، اتجاهات النقد الأدبي في القرن الرابع الهجري ، وكالة المطبوعات الكويت، ط1 .
- بدوي طبانة (1969م) قدامة بن جعفر والنقد الأدبي، مكتبة الانجلو المصرية، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، ط3
- جابر عصفور (1994م) ، قراءة التراث النقدي، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط1 .
- جابر عصفور(1995)، مفهوم الشعر- دراسة التراث النقدي – الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ط5،
- الجرجاني، القاضي عبد العزيز(1966 م)، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل ، وعلي محمد البجاوي،ط4، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه ، القاهرة .
- دردار بشير، إساءة قراءة التراث النقدي عند المعاصرين- قدامة بن جعفر نموذجا استدلاليا، مجلة دراسات معاصرة ، تصدر عن مخبر الدراسات الأدبية والنقدية، العدد الأول مارس 2017م، جامعة تيسمسيلت .
- دهمان أحمد علي(2003) النقد العربي القديم قضايا وأعلام، جامعة البعث ، مديرية الكتب والمطبوعات العراق، ط3 .
- طه احمد إبراهيم،(دت) ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي حتى القرن الرابع الهجري، دار الحكمة ..
- عوض أحمد حسن العلقمي،(2006)،صناعة الشعر عند قدامة، وأبي هلال العسكري، طبع كلية عدن، اليمن.
- فطوم مراد حسن(2013م)، التلقي في النقد العربي في القرن الرابع الهجري، منشورات الهيئة العامة للكتاب، وزارة الثقافة ديمشق .
- قدامة بن جعفر ، نقد الشعر،(دت)، تحقيق: عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، دط،
قدامة بن جعفر، نقد الشعر،تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة ، دط ، دت .
- النويهي محمد، (1949م)، ثقافة الناقد الأدبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1 .